الصوت والصدى

قصة بقلم رشاد أبو شاور

كان نهارا خصبا ، متعبا .. لهاث ، حمى، دوار ، اقدامنا المرتقبة تعبر الحدود من الاردن الى سوريا . أراض خصبة ، رطبة، حمراء. يطل من داخلنا خوف عتيق ، نتطلع حوالينا .. نركض .. من اين اتتنا هذه القوة العجيبة .

(سيكون معكم محمد . انه يعرف المنطقة جيدا .. لا تضعوا في جيوبكم أية أوراق ثبوتية) ، لو قبض علينا سنتعفن في السجن، وتقفز اقدامنا حاملة اجسادنا ، واحلاما ، عابرة الاراضي السورية ..

تنفس عميق . ها قد وصلنا قرية سورية .

ـ ما اسمها أخ محمد ؟

ـ تل شهاب .

بيوتات ريفية ، أهال طيبون ، منحونا الخبز والماء والقهوة المرة..

منحتنا قريتهم الظل الرطب . مالت الشمس وراءنا . احترق المساء موجعا ، اخذت الظلال المعتمة تزحف على الدنيا ، هبت نسمات رخية، تمنيت لو ننام هنا الليلة ، لكنه الحذر .

قال محمد مشيرا الى الوادي الذي يفصل بين البلدين :

ـ اترون .. هناك في ذلك الوادي ضيع كاسر ، غادر . بعد ان تنهوا تدريبكم وتعودوا ، واذا ما عبرتم في الليل ، وتصادف ان طلع عليكم ، لا تحاولوا قتله .. انتم لا تعرفون السر في ذلك .. وابتسم لنا : لقد نظمنا هذا الضيع معنا ..

غرقنا في الضحك رغم التعب !

ـ هذا الضيع أيها الرفاق ، بسببه لا تجرؤ ايما دورية على الاقتراب من المكان في الليل . انه رهيب .

اخذنا سبير وقد اكتست ملامحنا بطابع الصرامة .. وكان الدرب طويلا ، وما كان أهلونا يصرخون أين نحن ، ولو علمونا لاتهمونا بالجنون .. فالجيوش هزمت ، فهل يمكن ان يصمد هؤلاء الشباب فيصنعوا المعجزة ؟

فتح احدهم المذياع « الترانزستور » انسابت اغنية « سنرجع يوما الى .....ي » .

★★★

المعسكر ، خيمة وحيدة مفروزة بحذاء سفح الجبل .. نتطلع ،نرى جبل الشيخ ، ناصعا ، معمما بالثلج.. قريبا ، نائيا ، يسيطر عليه العدو .. يذوب ثلجه وينكسر تحت بساطير الجنود ـ تحلق فوق هامته إغان ولكنة غريبة ، نطل على دمشق الذابلة .. نتحلق حول المدرب. مديد القامة ، أسمر ، له عضل مفتول بارز ، شعره أجعد ، أشيب ،في حوالي الخامسة والعشرين .

ـ أقول لكم ، من كانت عزيمته فاترة فلن يصمد .. التدريب شاق . نحن نجوع ..

(ولدت في قرية منسية قرية منسية قريبة من الخليل ،تعلمت في مدرستها الابتدائية ، كانت امي تخبز لنا في الطابون فجر كل يوم ، فيعبق دقيق القمح وهو ينضج في الطابون .. نأكل الزيت والزعتر والخبز المقمر ، تشيع بطوننا ،يذهب والدي وشقيقي الكبير الى الحقل ، أحمل كيسا مزركشا صنعته أمي من القماش ، اضع فيه الزوادة والدفاتر وأخرج .. لم نكن قد عرفنا الجوع بعد . ودونما سبب واضح بدأت اراضينا تطوى ، ولا يجرؤ اصحابها على الاقتراب منها ، بدأ الموت يفترس بعض الشباب، أخذت القرية ثوب موجعة .. الاشداق تلتهم الارض من تحت اقدامنا . تمر سياراتهم في الطرق الترابية ، مثيرة وراءها عواصف الغبار التي لا تني تنعقد في سماء القرية مثل العار والذل ، ليس حولنا غير السكوت ، فرجال الشرطة ـ كما هم ـ لا هم لهم غير البحث عن الوجبات الدسمة مهما كلف الامر ، وما يحدث فلا يعنيهم .

ويوما عن يوم ، تلاشت الارض ، وظلت البيوت منتصبة عارية صدئة ، ورحل الشباب يبحثون عن قوت عيالهم وما بقي في قريتنا ، في نهاية المطاف ، غير الشيوخ والنسوة والاطفال) .

وتنبهت على صوت المدرب :

ـ حياتنا شاقة ، العيون تلاحقنا أنى رحلنا .. لا يهم . ربما نسجن ، نموت .. لا يهم ، لن نخسر شرفنا مثلهم .

(قال شقيقي الكبير وقد استبد به الغضب والاسى ، وكان معه بعض شباب القرية ، منتكبين بنادقهم الانكليزية ، التي دفنت في الارض طويلا ، وما كانت الشرطة تعلم بها .

ـ أسرنا بدأت تجوع ، ياشباب ، اترحلون وتتركون قريتكم ،تتخلون عن شرفكم ؟ أم تنتظرون ان تأتيكم الوكالة بالطحين الى قريتكم ؟تصيرون لاجئين في قريتكم .

اتقدت العيون بالغضب ، اشتعلت أفواههم بكلمات تقطر نارا، بحب مجنون للارض والاهل والشرف . تشابكت ايديهم ، أقسموا ان يحرثوا الارض ويحموها بالبواريد العتيقة ، أو يموتوا دون ذلك) .

اخذ العرق ينفصد من جبينه ، شمر عن زنديه ، امتدت ذراعه في الفراغ ، كانت مثل (سبطانة وهاون)

اشتعل المساء القهري بالحرارة ، كان دفق الذكريات يتلاحق ، جاعلا الاذهان تتقد بوهج الكلمات اذ تخرج من فم المدرب ، تمتد القلوب تتحد ، تصير قلبا واحدا في أجساد كثيرة ..

ـ ما سكتنا للوحش وهو يسرق الارض .

(وصعدت نسوة القرية فوق بيوتات الحارة الغربية ، يجلن النظر في كل اتجاه .. واخذت المحاريث تشق الارض ..

ما زلت اذكر كل شيء كأنه الان امامي .

البهائم تجر المحاريث . الشباب يضعون اصابعهم على أزندة البنادق . رجال الشرطة كأنهم مسوا جميعا ينذرون بالويل .. واذ يجيبهم الاصرار يعدون الى مخافرهم .

ـ هلو .. هلو .. اهل القرية خرجوا الى المناطق التي يسيطر عليها اليهود .. معهم بنادق ، ما كنا نعلم انها بحوزتهم .. حوالي عشرة اشخاص .

وقفلت اسابق الريح حكيت لشقيقي عما سمعت . ابتسم قال، الحكومة خائفة من الورطة . وأتى اليهود ، سياراتهم تثير الغبار والخشية .. طاخ .. قالت بنادقنا . ردت من فوق ، سياراتهم . ط .. طط .. طا .

اختبأت النسوة في البيوت . تمددت على بطني . سقطت البهائم وهي تخور ، أرنمت المحاريث فيها منهارة على صدر الارض . رحلت سياراتهم وعندها تقدمنا بتوجس ، حملنا قتلانا ، تصاعدت ولولات النسوة ، حملنا شقيقي ، وقد امتزج دمه بالتراب وظلت باصرتاه مفتوحتين .

من الخليل أتت سيارات الشرطة . القرية تولول ، دمها يسيل..

حواريات

١ ـ النبـوءة :

انت تأتي
تتهجي صدف الموت ، وتبكي ،
وحدك البالـي ،
وكل الشوق ينأى في بلادي
أنت تنأى
نحن ننـأى
ذلك الوجه الذي أحببت ، ينأى
كل شيء في بلادي
كان ينـأى
فلمن تحمل يا هذا النبوءات
ومن يعطيك ان قاتلت ثوبه ؟
انهم صحبك أسرى
انها الصخرة موت
انها بغداد ، غربه
والنبوءات طريق
انت لا تعرفها ، والشعر شيخ
يتخفى في جبيني

٢ ـ الفارس والصوت :

فيك لم نبصر رياحا تنحني
لم نقل : من ذلك الملقى على الوجه
حصى
وعلى الماء فؤادا
يتلوى ويموت
ـ : وحدي الميت ؟
ـ : لا ،
كلّ بلادي ميتة بعدك
والشاعر سقب يتلوى
ـ : والسكوت
ـ : لغة العاشق ،والشاعر سقب
والفرات امرأة تحمل رأسي
وتفـوت
صوتها النادب موتي
ـ : صوتها ؟
ـ : لا ، أنت صوتي
وحدك القادم نحوي ،
ملكا توّجك الليل ، اشتهيت الموت ،
مت ، انحنت الارض ،
جثا الفارس ،
طوفانك سيف ، سقـط السيف ،
سقطنا ،
عري الفارس ، طوفانك برد
وبلادي سفر يمسح صدري
والفرات امـرأة غسلتني
واختفت في مدن السبي
أختفت تحمل ثوبي
وتغنـي :
« حجر أنت ، هنا تلقى طريقا.
كنت فيـه
عاشقا ، يلتثم ، يخفي وجهه ،ينسى
خطاه
حجر انت وكلّ الصحب تاهوا
حجر انت ، وهذا الافق رمل
ويـد »

بغـداد

حميد الخاقاني

رجال الشرطـة يبحثون عن البنادق .. من يومهـا احست بشيء يخزني في جبيني الايسر ، وظل يلازمني مثل ذمل مزمن) .

أعادني صوته الى المكـان .

ـ الليلة تستريحون ، ومع فجر الغد نبدأ في الحياة الجديدة .

(قال ابي جادا) :

ـ ارضنا ضاعت ، وشقيقك مات ، وانا لم اعد اقوى على العمل.. ستترك المدرسة ، وتذهب للعمل مع اقاربنا في عمان ، اعرف انـك صغير ، لكن ما باليد حيلة ، لقد كتب علينا جميعا ان لا نعرف الراحة.

وعاودني الوخز في جبيني الايسر ، حتى نات السيارة بنا عـن دور القرية ، والاراضي التي كانت لنا يوما) .

جلس المدرب على التراب ، دارت اكواب الشاي الغامق ، أخذنا نصب دخان سكائرنا بشراهة ، طرقت أذاننا اصوات آتية من قفا الجبل، كانت خافتة ، ثم اخذت تعلو وتتضح .

قال المدرب .

ـ انهم من جماعتنا ، لقـد سبقوكم في التدرب ، ستتعرفون بهم دون ذكر الاسماء . مفهوم .

قال احدنا .

ـ الا يوجد غير هذه الخيمة ؟

قال المدرب .

ـ عما قريب سيكثر عددنا ، وخيامنا ، ومعسكراتنا .. لا شك في ذلك .

★★★

انساب الرجال مع مسربة تتلوى على سفح الجبل ، كانوا يرمحون، بيـن الصخور والاشواك .. تعانقنا ، تصافحت ايدينا ، سروا بوجودنا، وتفرست عيونهم ملامحنا بثقة وحرارة . ثم تمـددت الاجساد علـى البطاطين في العراء تحت أشعـة القمر الذائبة .. دخل المدرب على الخيمـة ومعه اثنان ، وبعدئذ خرجوا ومعهم رشاشات بور سعيد ، وتوزعوا في امكنة تحيط بالمعسكر .. واغلق الكرى والتعب العيون .

وللمـرة الاولى منذ فارقت اهلي ، ورحلت لاعمل في عمان ، شعـرت بالراحـة تسري في جبيني الايسر ، وتفتحـت مسام وخـلايا جسدي تشرب نور القمر ، ثم نمت . صحوت ، رأيت بيوتات القرية .. وجه ابي الهرم ينشج بالبكاء المر ، وقد تمدد امامه جسد شقيقي واربعة من شباب القرية .. رأيت أبواب البيوت تنشق عن أهل القرية ..يخرجون يجللهم الفرح . والمطر يهيمن على الارض الظمأى ، وتعمل المحاريث في الارض .. وتعشب القبور .

رشاد ابو شاور